محمد عبدالله الترهوني

# الماء

محمد عبدالله الترهوني

# الماء

بلوتارخ يؤكد أن الأب الأول لليهود هو سيت وقد بقي بعد طرده من مصر مشردا،طرد من مصر لأنه ارتبط بالتوحيد و تحطيم الأوثان،إحدى البرديات الرمسيسية تقول:"أبوفيس ملك الهيكسوس لم يكن يعبد سوى الإله سيت"،عاش الهيكسوس في عاصمتهم التي تحمل اسم الإلهة الليبية تانيت،وهي صوعن في سفر العدد،عاش الهيكسوس معزولين،وقد برر المصريين هذه العزلة بمرض الجذام،والحقيقة أن مرض الجذام لم يكن سوى رمز للتوحيد الذي يمكن أن ينتشر بين الناس و لهذا يجب عزل معتنقيه،لقد فرضت على بوسيدون العزلة في البحر و البر،وشكل معتنقي ديانته غيتو يحرم فيه كل ما يحله المصريين، بوسيدون،سيت،هي أسماء لإله ليبي قديم،مشرد ويعيش عزلته بعيدا عن ضجيج العالم،وربما بسبب هذا الإله تكوّنت علاقة السامية بالماء،للعرب و اليهود علاقة جوهرية بالماء،كان على أم موسى أن تخاطر بوضعه في سلة تسير في مجرى نهر النيل،فعلت ذلك إذعانا منها لصوت إلهي،الأمومة كانت تفكر في فرعون كنوع من الأنين،شعور بالتهديد في حده الأقصى،تركته يذهب وهي شاحبة شحوب الموت من شدة الحزن،موسى لم يبكي،لم يتأوه،لم يستعجل الوصول إلى أي مكان،كأنه أتفق مسبقا مع الماء على المكان الذي يجب أن يصل إليه،يقال أن معنى اسمه "موسى" هو ابن الماء،لم يعرف على وجه الدقة من سماه بهذا

الاسم،هل هي امرأة فرعون آسيا،أو أنها ابنته "دربته"،وربما تكون الجارية التي وجدته عند ضفة النهر و حملته إلى آسيا،كان البقاء في مصر بالنسبة لموسى هو السقوط في العدم،تلقى الأمر بالخروج ببني اسرائيل من مصر،بدون مسار إلى اليمين أو اليسار لا توجد فرصة للنجاح،موسى اعتقد أنه يعرف المسار إلا أن الماء كان يهدد فكرة الهرب بعيدا عن فرعون،شعب كامل نظر إلى الماء كغول ينتزع موسى من حلمه،لكن النيل يعرف موسى جيدا،رفع موسى عصاه،رفعها إلى الحد الذي لم يعد هو موجود معه إلا كدليل على الإيمان،ضرب سطح الماء،اهتز السطح بقوة ومعه الجغرافيا و التاريخ،ضرب معه الخط الفاصيل بين الحياة و الموت،انفلق النهر وانطلق شعب اسرائيل خلفه وهم مستسلمين لروعة المعجزة،موسى رفع الحجر من على فم البئر و استقى لبنات شعيب،موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عينا،كأن موسى هو بوسيدون و هو يثأر لنفسه،كافكا نفسه كان يود الموت غرقا،ففي نص الحكم يقول الوالد لابنه جيورج:"لقد كنت في الحقيقة طفلا بريئا،لكن الأكثر حقيقة هو أنك كنت إنسانا شيطانا،لهذا فاعلم:إنني أحكم عليك الآن بالموت غرقا،شعر جيورج أن عليه الخروج من الغرفة،الوالد لا يرغب في وجوده،لقد ساقته قدماه فوق الشارع إلى المياه،قفز من فوق الجسر إلى مياه النهر"،كل ما يرغب فيه كافكا يعبر عنه من

خلال الماء،لهذا قال عن ميلينا:"إنها مقدار كبير من الماء،كانت تشبه المحيط بكل قوته،ميلينا فوضى من الماء".

أما العبور فقد كانت له حكاية مع حلم أرق مسلمة بن عبدالمالك،كان الرجل قليل النوم لأن هذا الحلم المزعج كان يعود إليه في نومه المرة بعد المرة أكثر وضوحا و حزنا،في أحد أيام الخريف التي تجتمع فيها الغيوم للتذكير بشتاء قادم دخل مسلمة على أخوه هشام وهو جالس في بستان قريب من القصر،كانت حركات يد مسلمة تخبر عن الضيق الذي يشعر به،فسأله هشام عن حاله،صمت لبعض الوقت ثم قال:"بخير يا أخي لولا هذه الرؤيا التي تجمد الدم في عروقي"،لم يهتم هشام إلا بشكل عابر،لكن ضيق مسلمة فرض عليه أن يطلب منه أن ينزع عن حلمه صفة السرية و يتكلم،نظر مسلمة إلى بركة الماء الصغيرة التي كانا يجلسان بالقرب منها وقال:"أرى في نومي طفلا يقطع مجرى نهر كبير،يحمل على رأسه سلة بها خلق كثير،السلة مزدحمة بأناس صغار الحجم يتدافعون،الطفل خائف لأن هناك سببا قاهرا يدفعه للسير دون توقف،عليه أن يبقي السلة بعيدا عن الماء،كان وزن السلة يزيد مع كل خطوة،وهو مذعور من تخيله سقوط صغار الحجم و غرقهم في الماء،وفي اللحظة التي نظر فيها إلى الخلف ليتأكد من صحة مساره،رأى طفلا صغيرا يرفع يده بشكل خجول،كانت المسافة التي قطعها الطفل

الذي يحمل السلة طويلة و يتعذر عليه الرجوع بسبب خوفه و وزن صغار الحجم،التفت الطفل ليقول انتظرني سأعود إليك،لكن صوته ذاب في مجرى النهر و سقطت الكلمات كالحجر في قاع النهر ،وصل إلى الضفة الأخرى البعيدة،وضع السلة على الأرض و أخرج منها صغار الحجم،و بمجرد ملامسة أقدامهم الأرض تحولوا إلى عمالقة،كل الطرق كانت مفتوحة أمامهم،كان الطفل يريد العودة إلى الضفة الأخرى،لكن الطفل لم يكن في مكانه،اختفى الطفل،جلس الطفل يبكي بحرقة ندما على عدم العودة،لكن دموعه لم تكن تسقط من عينيه هو،بل من عيون الطفل الذي اختفى في قاع النهر"،كانت دموع هشام تجري على خده و هو يستمع،أحس مسلمة بالغم الشديد و أستأذن هشام ليرحل عنه،عند الباب وجد بعض الأطفال يلعبون فاقترب منهم،كان عبدالرحمن بن معاوية بن هشام أحد هؤلاء الأطفال،فخر مسلمة على ركبتيه و هو يصرخ:"هذا هو الطفل يا هشام،هذا هو الطفل".

نظر عبدالرحمن إلى مسلمة بعيون لا تطرف وقد دب الهلع في قلبه،لأن الزمن يجري مثل النهر إلى الأمام دائما،كان عبدالرحمن في سن الثانية و العشرين و هو يركض أمام خيول بني العباس،عبدالرحمن يركض ممسكا بيد أخوه الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره،وعندما وقف على ضفة نهر الفرات كانت رايات

بني العباس السوداء تسد الأفق،ليس أمامه و أخوه إلا مياه النهر الكبير،قذف أخوه في الماء ولحق به وهو يصرخ:"لا تنظر إلى الخلف يا أخي فقط اسبح،لا تنظر إلى الخلف أرجوك"،الضفة الأخرى بعيدة،ولم تكن لدى عبدالرحمن عصا موسى،الضفة الأخرى بعيدة،الغرب دائما بعيد و معتم و خطير،أصوات أصحاب الرايات جاءت مع الريح:"عودوا و لكم الأمان،أنتم على وشك الغرق في مياه النهر،عودوا و لكم الأمان"،صاح عبدالرحمن في أخوه:" لا تستمع إليهم اتبعني،أنا هنا لا تخف،أنا هنا"،لكن الطفل الصغير قرر العودة ولم يجدي توسل عبدالرحمن و صراخه فيه بأن لا يفعل،وصل عبدالرحمن إلى الضفة الأخرى،و وصل أخوه إلى حيث الخيول و الرايات،حين نظر عبدالرحمن إلى الجهة التي فيها أخوه،وجده جاثين على ركبتيه،و ينادي :"عبدالرحمن،عبدالرحمن"،وأحدهم يقف خلفه و في يده سيف تعكس صفحته لون الغروب الأحمر،كانت الشمس تغرب هناك في أقصى الغرب،لكنها و لأول مرة كانت تغرب في الشرق أيضا،سقطت دمعة عبدالرحمن في النهر في نفس اللحظة التي سقط فيها رأس أخيه على الأرض،ركب الجنود و ابتعدوا و عبدالرحمن ينظر إلى جثة أخوه و كأنه لا يريدها أن تظهر في الصورة،نظر إلى الجثة طويلا كي لا ينساها كما ستفعل ضفة النهر،من ضفة الفرات المرمية عليها جثة أخيه،إلى ضفة نهر النيل التي مرت بقربها جثة

الإسكندر،إلى مضيق جبل طارق و عبدالرحمن في عبور بعد عبور،يركض ليلا و يتوقف نهارا حتى لا يراه أحد،وحتى لا يرى هو جثة أخوه على ضفة النهر أثناء نومه،تذكر لون الشمس الأحمر على صفحة السيف وهو جالس على رأس العدوة في انتظار عودة خادمه بدر من الأندلس بالأخبار السارة،سمع صوت أخيه و هو يصرخ:"عبدالرحمن،عبدالرحمن"،فبكى لكن دموعه هذه المرة كانت تسقط في عالم آخر،عاد عبدالرحمن إلى العالم عندما لمست كتفه يد بدر وهو يصيح:"ابشر يا سيدي لقد تحقق ما أردت،سيكون لك دولة كما لهم دولة"،أثناء عبور عبدالرحمن المضيق،كان صوت أخوه ينساب مع الماء،لم يكن ذلك الصوت الخائف و المرتعش،بل كان في صوته شيء من الحبور.